الآثار العثمانية في السودان

انتصار صغيرون الزين

ملخص: تتناول هذه الورقة تاريخ وآثار فترة مهمة من تاريخ السودان، هي فترة الوجود العثماني - وهي فترة من الفترات التي تجاهلتها المصادر التاريخية، عدا الشذرات القليلة. وتحاول هذه الورقة إبراز أهم آثار هذه الفترة، الموجودة في مناطق النفوذ العثماني التي شملت المنطقة من الشلال الثالث حتى الحدود المصرية شمالاً. إضافة لميناء سواكن على البحر الأحمر. وتشمل الدراسة الآثار والقلاع، والمنازل، والمساجد، والخلاوي والزوايا. كما تطرق البحث بإيجاز إلى آثار التركية الثانية بعد حملة محمد علي باشا الألباني للسودان ١٨٢١م، من دون الدخول في مقارنات بينها وبين آثار مملكة الفونج، التي شملت أجزاء كبيرة من السودان جنوبي الشلال الثالث، ولا مع الآثار العثمانية في بقية الإمبراطورية؛ لأن الهدف من البحث تعريف الباحثين في هذا المجال للالتفات لهذه الفترة، ووضعها في إطارها الصحيح داخل منظومة الآثار العثمانية، بصورة خاصة، والآثار الإسلامية، بصوره عامة.

Abstract. *This paper throws light on one of the most important but ignored periods of the history of the Sudan, the Ottoman period. The Ottomans' advances into the Sudan go back to 1523 when they annexed Suakin at the Red Sea. Then they marched south through the Nile Valley from the mid 16th century onwards; that march culminated in 1584 in the agreement with the Fung rulers by which the territory between the two powers was fixed at Hannek, 10 km south of the 3rd cataract region. The archaeological remains included fortresses, forts, houses, mosques, seclusions (khalwas) and corners (zawyas). The area was in the periphery of the great Ottoman Empire and its archaeological remains have to be approached with caution. The paper seeks to draw the attention of scholars of Ottoman archaeology in particular and Islamic archaeology in general to the wealth of this period.*

مدخل:

كان للسودان، القطر المترامي الأطراف، القاري مناخاً وسكاناً، ثقافات وحضارات موغلة في القدم، ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ القديم، وامتدت فروعها حتى العصور الوسيطة والحديثة. وقد كُشف - حتى الآن - عن بعض هذه الثقافات والحضارات، ولا تزال الأرض حبلى بالكثير من المواقع الأثرية، التي لم تكتشف بعد.

والملاحظ أن البحث الأثري في مجال العصور الوسيطة والحديثة، لا يتناسب مع ما خلفته هذه الفترات من آثار، إذ لا يزال معظمها شاخصاً منتظراً تقديم العون، قبل أن تختفي هذه الآثار تماماً، خاصة الآثار الإسلامية، التي تجاهلتها كل حملات إنقاذ النوبة تجاهلاً واضحاً. وقد استطاب هذا التجاهل مؤرخو هذه الفترة، إذ انحصر معظم عملهم على تاريخ دخول العرب السودان، وعلى قيام وسقوط ممالك الفونج والفور، فلا نجد بحوثاً تتناول الوجود العثماني في السودان قبل تركية عام ١٨٢١م، عدا بعض الشذرات القليلة هنا وهناك، التي تشير إلى وجود الأتراك شمالي الشلال الثالث، وفي سواكن، منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، التي تتزامن مع قيام مملكة الفونج الإسلامية، التي حكمت معظم أرجاء السودان الحالي، عدا سواكن وشمالي الشلال الثالث وبعض أجزاء دارفور.

غير أن الصحوة التي بدأت في إعادة دراسة آثار الإمبراطورية العثمانية بصورة عامة، واكبها مجهود فردي للدكتور جون الكسندر، من جامعة كمبريدج، وذلك بدراسته

العدد الثامن جمادى الأولى ١٤٢٤هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٣م
(ص ص ٨٩- ١٠٢) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

العميقة والمتأنية للوجود العثماني فى السودان. ومن خلال هذه الدراسة اتضح لنا وجود ثلاث فترات للأتراك فى السودان؛ وهي التركية الأولى ١٥٢٤-١٨٢١ (العثمانية)، والتركية الثانية ١٨٢٢-١٨٨٥ (حملة محمد علي باشا)، والتركية الثالثة ١٨٩٨-١٩١٦ (الحكم المصري - البريطاني).

١- مقدمة تاريخية:

سيطرت الإمبراطورية العثمانية على أجزاء كبيرة من شمالي أفريقيا، وذلك في الفترة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر. ولعل اهتمامها بسلامة ولاية مصر، من جهة، وسياسة التحكم في الجزيرة العربية وشواطئ البحر الأحمر، من جهة أخرى، من أجل التجارة مع الهند، كانا من أقوى الأسباب التي أدت لتوغلها في السودان، عبر النيل وعلى شواطيء البحر الأحمر (Alexander 2000: 15).

بدا هذا التوغل في السودان منذ بداية القرن السادس عشر، أي قبل أكثر من ثلاثة قرون من الغزو التركي المصري للسودان عام ١٨٢١م، الذي يعده الكثيرون البداية الحقيقية لوجود الأتراك في السودان، وهو الرأي الذي أثبتت الدراسات الحديثه خطأه. فقد ثبت أن الوجود التركي كان واضحاً في الشلال الثالث، وخاصة جزيرة صاي، وكذلك شمال الشلال الثاني في منطقة قصر إبريم (الآن داخل النوبة المصرية)، إضافة إلى وجود الأتراك في سواكن على البحر الأحمر. وهكذا أصبح في الدراسات السودانية ما يعرف بـ "التركية الأولى"، وهي الفترة الممتدة منذ ١٥١٧-١٨٢١م؛ ثم "التركية الثانية"، وهي الفترة التي تلت حملة محمد علي باشا للسودان، والممتدة من: ١٨٢١-١٨٨٥م.

٢- مصادر الدراسة:

أقدم المصادر التي تحدثت عن هذا الموضوع ما كتبه الرحالة التركي أوليا شلبي، الذي يُعتقد أنه زار المنطقة في عام ١٦٧١م، في مجلده العاشر عن مصر والسودان (شلبي ١٩٣٨).

وكما ذُكر سابقاً فهنالك بعض الإشارات القليلة العابرة عن الوجود التركي الأول في شمال السودان، التي ذكرها بعض المؤرخين، أمثال: نعوم شقير (١٩٠٣)، ومكي شبيكة (١٩٩١)، وهي في مجملها إشارات قليلة. غير أن الوضع تغير بعد إكمال العمل الأثرى بموقع قصر إبريم وبعد بدء العمل الأثرى بموقع جزيرة صاي. فقد كُشف في قصر إبريم عن مجموعة كبيرة من الوثائق، التي تعود لتلك الفترة. كما نشرت أكثر من ٢٠٠ مخطوطة بالتركية والعربية، إضافة للأرشيف العثماني بالقاهرة واسطنبول (Soghayroun 2000-101).

شرحت هذه الوثائق الكثير عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية والتاريخية، كما استُقي منها الكثير من المعلومات، مثل تلك الخاصة بالقضاء مثلاً، وكيفية دفع أجور عساكر الحاميات. كما أوضحت هذه الوثائق التدهور الواضح في استخدام اللغتين العربية والتركية، في وثائق القرنين ١٧-١٨م، ما يجعلنا نفترض أن النوبية أصبحت هي اللغة السائدة. كما لوحظ من الوثائق أن سكان قلعتي إبريم وصاي، في نهاية القرن ١٩م، صاروا يفخرون بأنهم "أتراك عثمانيون"، كتمييز لهم عن النوبيين والعرب. كما ادعى بعضهم الأصل البوسني (Bosnian)، مثلما ادعى آخرون الأصل المجري (Hungarian) في منطقة وادي حلفا، وهي ادعاءات دعّمت بالأدلة والوثائق من قصر إبريم (Alexander 2000: 52).

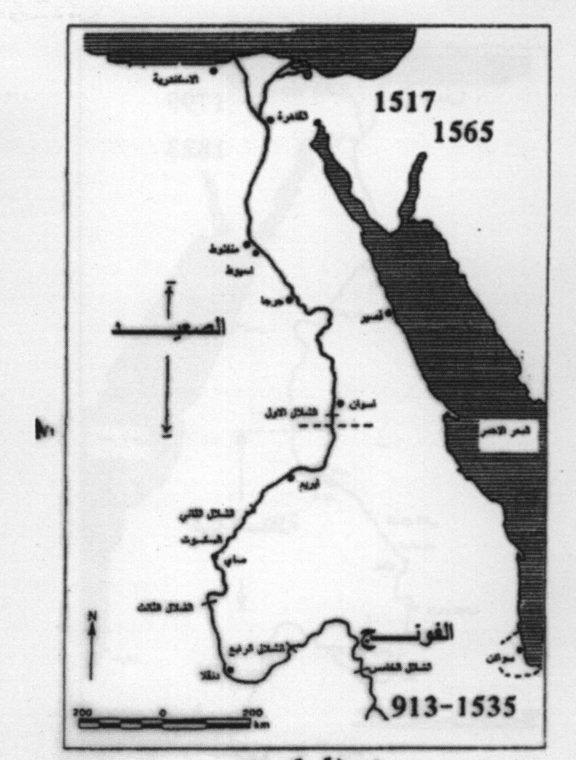
٣- التركية الأولى (١٥١٧-١٨٢٠) م:

٣-١ التركية الأولى في وادي النيل:

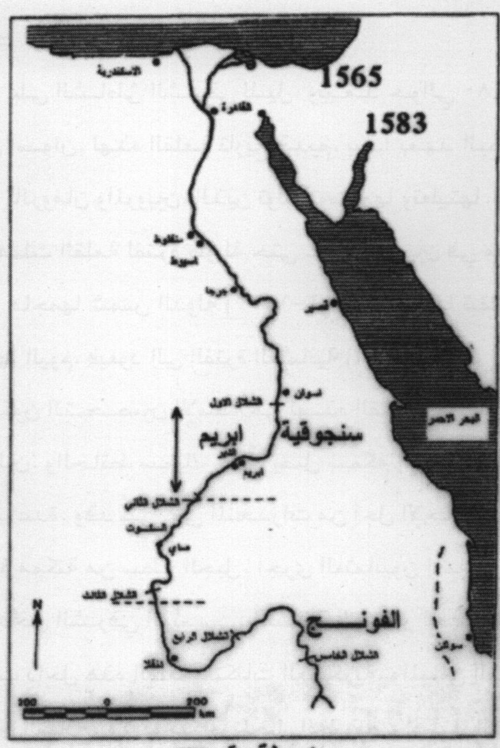
طوّرت الإدارة التركية طريقتها في التحكم الحدودي في وادي النيل. فقد كانت مشكلتها الأساسية كيف تحمي ولاية مصر من الهجوم القادم من الجنوب. ومن خلال الأدلة الأثرية والوثائق ميّز الكسندر خمس مراحل، حدث فيها تغيير لسياسة الحدود بين الأعوام ١٥١٦-١٨٢٣م (Alexander 1996).

المرحلة الأولى (١٥١٧-١٥٦٠) م: وهي المرحلة التي أصبحت فيها مصر إحدى مقاطعات الإمبراطورية العثمانية، تسمى (إيالات). أصبحت المنطقة ما بين أسيوط وأسوان، وهي منطقة الصعيد، منطقة حدودية تسمى: "سنجوقية" (Sanjak) أي محافظة. وفي هذه الفترة وصل نفوذ الفونج دنقلا، ومنها، وعبر وكلائهم، وصل حتى الشلالين الأول والثاني، ما حدا





خريطة رقم (١)
الحدود العثمانية ١٥١٧-١٥٦٥
(عن: الكسندر ١٩٩٦)



خريطة رقم (٢)
الحدود العثمانية: ١٥٦٥-١٥٨٣. سنجوقية ابريم الجديدة (عن: الكسندر ١٩٩٦)

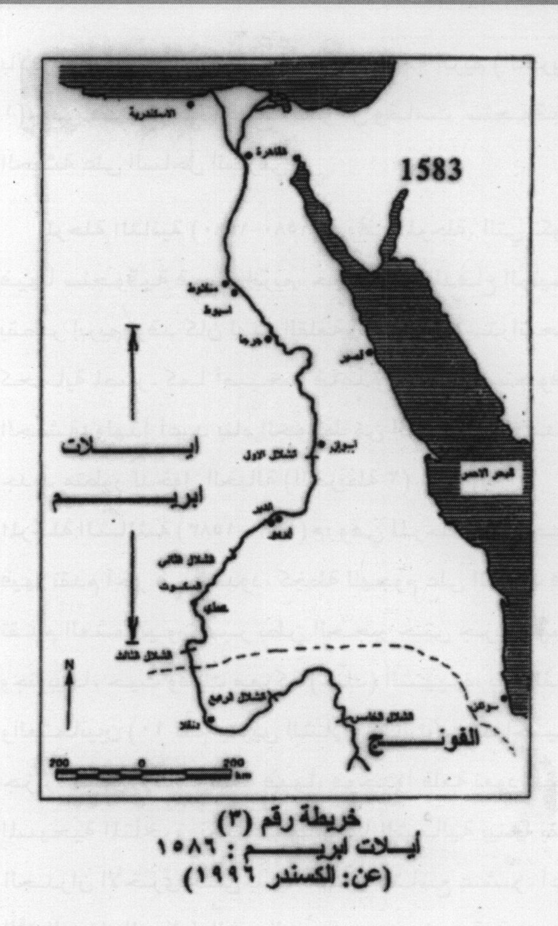
بالأتراك بناء برج مراقبة عام ١٥٥٠م بقلعة إبريم (الخريطة ١). وفي هذه المرحلة احتُلت سواكن وقامت "سنجوقية" الحبشة على الساحل الشرقي.

المرحلة الثانية (١٥٦٠-١٥٨٠)م: وهي المرحلة، التي تكونت فيها سنجوقية قصر إبريم، حيث وضع الدفاع الرئيسي بقصر إبريم، وقد كان لهذه القلعة أهميتها الإستراتيجية، كحماية لمصر. كما أصبحت قاعدة لسواكن وسنجوقية الحبشة؛ ولهذا أعيد بناء الحوائط من الحجر، وبناء مدخل جديد متطور لدخول الخيالة (الخريطة ٢).

المرحلة الثالثة (١٥٨٣-١٥٨٦) م: وهي المرحلة، التي حدث فيها تقدم آخر في الحدود، كخطة للهجوم على الفونج. فقد تقدم العثمانيون عبر بطن الحجر حتى جزيرة صاي وجنوبيها، حيث وقعت معركة (حنّك) الشهيرة، بين الفونج والعثمانيين (١٠ كلم جنوبي الشلال الثالث). وقد اختيرت جزيرة صاي لإقامة قلعة فيها، فوجدوا قلعة تعود للفترة المسيحية المتأخرة، تحطمت جدرانها الشمالية بينما بقيت الجدران الأخرى حتى بداية القرن التاسع عشر. أعاد الأتراك بناء الحائط الشمالي، وشيدت سنجوقية جديدة، لتغطي منطقة الشلالين الثاني والثالث (سنجوقية المحس)، إضافة لسنجوقيتي إبريم والصعيد. وقد قصد من ذلك الحصول على موارد السودان، من ذهب وعاج وأبنوس وقطن وصمغ ورقيق. وقد ألغيت سنجوقية المحس بعد عام واحد من إنشائها. ومن أهم أحداث هذه المرحلة السماح للجنود بالزواج وممارسة أعمال إضافية، مثل الزراعة (الخريطة ٣).

المرحلة الرابعة (١٥٨٦-١٧٨٦) م: في هذه المرحلة استمرت قلعة صاي قلعة رئيسية، بها حامية منتظمة. وقد اتضح من الوثائق أن دور القلعتين (ابريم وصاي)، بدأ في التحول تدريجياً من دور عسكري إلى دور إداري، بغرض جمع الضرائب. وقد سُمح للجنود بالسكن داخل القلعة في إبريم حيث بنيت منازل سكنية من الحجارة، المعاد إستخدامها من المباني السابقة.

وقد بنيت المنازل على الطراز الإسلامي، وطليت باللون الأبيض، وكانت ذات أسقف مسطحة. كما شيدت مبانٍ



خريطة رقم (٣)
أيـالات ابريـــم : ١٥٨٦
(عن: الكسندر ١٩٩٦)



خريطة رقم (٤)
(أ) الفرنسيين (١٧٩٩-١٨٠٢) و (ب ، ج) الحدود العثمانية (١٨٠٢-٢٣).
(عن: الكسندر ١٩٩٦)

عسكرية وإدارية ومسجد ومخازن وغرف للحراس. وبنهاية هذه المرحلة، أصبحت قلعة إبريم قرية محصنة، يسكنها ما بين ٥٠-٧٠ أسرة، وظهر في هذه الفترة اسم "الكشاف" بكثرة.

المرحلة الخامسة (١٧٨٦-١٨٢٣) م: شهدت هذه المرحلة إعادة التنظيم الأخير للحدود الجنوبية. فقد أصبحت سنجوقية الصعيد تمتد حتى الشلال الأول جنوباً. أما المنطقة بين الشلالين الأول والثالث، فقد أصبحت تحت أمراء الهوارة (الخريطة ٤). وأوضحت الوثائق أن مرتبات الجنود في قلعتي إبريم وصاي، ظلت تصل إليهم حتى عام ١٧٩٦ . كما أوضحت الصور الجوية من قلعة صاي، سلسلة من المباني ذات الأسقف المسطحة، التي تركزت في الجانب الشرقي والجنوب الغربي، كما وجدت المباني ذات الطابقين والثلاثة طوابق.

٣-١-١ قلعة ابريم:

تقع هذه القلعة على جبل صخري معزول، يرتفع ٧٠ متراً على الشاطئ الشرقي للنيل، ويبعد حوالي ١٨٠ كلم جنوبي أسوان. لهذه القلعة تاريخ قديم، يبدأ بعهد البطالمة، مروراً بالرومان والمرويين، الذين تولوا توسيعها وتعليتها. وبعد ذلك أهملت القلعة لفترة طويلة حتى عهد الأيوبيين في مصر، عندما هاجمها شمس الدولة (١١٧٢-١١٧٣)م. أما ما تبقى من جدرانها اليوم، فيعود إلى الفترة العثمانية (الشكل ١).

يتكون التحصين الإسلامي لهذه القلعة من حائط ومدخلين. والحائط سميك جداً، يصل سمكه إلى ثلاثة أمتار في القاعدة. وقد بُني على المنحدرات من أجل الإحاطة بأكبر مساحة ممكنة من سطح الجبل. أجرى العثمانيون إضافة مهمة هي المدخل الشرقي الرئيسي، إضافة إلى ممر لجلب المياه. وأقيمت داخل هذه القلعة الثكنات العسكرية، والمباني العامة، ومخازن السلاح. ولا يوجد أثر لمحال الحرفيين، أو نُزل التجار.

أما المنازل السكنية، فكانت القاعدة العامة أن تتكون من طابق واحد، بسقف مسطح، خلافاً للأسطح المقنطرة

الشكل ١: مسقط أفقي لقلعة إبريم (نقلاً عن: Alexander 2000).



(Vaulted) الموجودة في قرى النوبة. كما وجدت في الفترة الأخيرة المنازل المكوّنة من طابقين، وتحيط بها مساحات واسعة. وتتبع المنازل الكبيرة النظام التقليدي الإسلامي، وهي تشبه منازل العثمانيين الأولى في سواكن. وتتكون هذه المنازل من غرفة خارجية، تؤدى إلى ساحة واسعة تؤدي بدورها لغرفة المجلس الخاصة بالرجال (الديوان). وفي هذه الساحة يوجد مدخل صغير يؤدي إلى مكان النساء، الذي يمكن تقسيمه حسب عدد الزوجات. كما تم تمييز مكان الطبخ داخل هذه المنازل.

وفي قصر إبريم حوّل جزء من الكاتدرائية إلى المسجد، خلال المرحلة الثانية من الوجود العثماني بالمنطقة، وذلك بقطع محراب داخل الحائط الشرقي وبناء منبر.

٣-١-٢ قلعة صاي:

تقع هذه القلعة في جزيرة صاي، شمالي الشلال الثالث، وهي واحدة من أكبر جزر النيل، التي تسمح ضفافها بالزراعة. عرفت صاي منذ الألفية الثانية ق. م، كما دلت الحفريات الأولى (Vercoutter 1958). وعند وصول العثمانيين، كانت على جزيرة صاي قلعة ضخمة، تعود للفترة المسيحية المتأخرة، حائطها الشمالي متهدم، بينما بقية الجدران والأبراج، التي بنيت من الحجر والطوب الأخضر، شامخة لارتفاع ١٢ متراً. وأظهرت الأعمال الأثرية الأخيرة (Alexander 1997) وجود أربع فترات سكنية بالموقع. وبالمقارنة مع قلعة إبريم، فان قلعة صاي أقل منها في القوة والعمارة؛ ولكن التخطيط العام هو نفسه في القلعتين، إذ توجد أربعة أبراج ذات طُرز معمارية مختلفة، في ثلاث منها غرف. أما البرج الرابع وهو الجنوبي الغربي، فيه غرف للمدفعية والبنادق. والمدخل الوحيد للقلعة في الحائط الجنوبي، ما لم يكن هنالك آخر في الحائط الشمالي المتهدم. وكما هو الحال في إبريم، فان القلعة ضمت ثكنات ومبانٍ إدارية ومخازن للسلاح (الشكل ٢).

أما المنازل في صاي، وعلى الرغم من تدهور حالة الموقع الأثرى فيمكن تمييز تسعة منازل كبيرة من الطراز الإسلامي التقليدي، ذات المشربيات التي أوضحتها رسومات "بلفوندز".

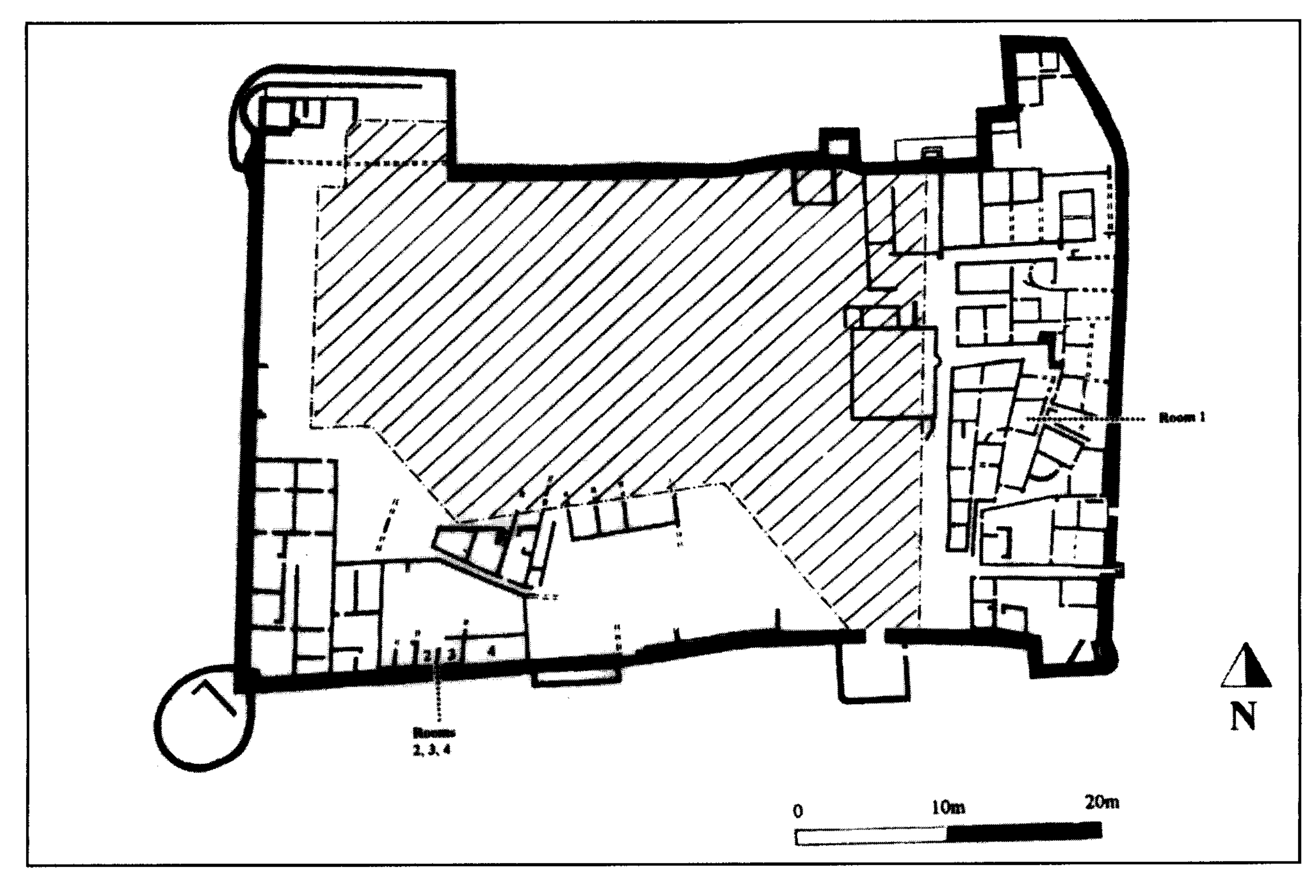
كما كُشف عن مسجد الجمعة، بالقرب من وسط القلعة، وهو المسجد الذي ذكره شلبي في عام ١٦٧٢ (Çelebi 1938). وقد جرى مسح هذا المسجد في عام ١٩٥٨م، وبلغت مساحته (١٢ X ١٢) متراً، إضافة لثلاث غرف صغيرة ومئذنة، وقد أشارت دراسة جون الكسندر سنة ١٩٩٧، إلى انه مبني من الطوب اللبن (Alexander 1997).

٣-١-٣ إقليم المحس (الشلال الثالث):

منطقة الشلال الثالث هي المنطقة الحدودية للعثمانيين. على الرغم من أن الحدود الجنوبية للعثمانيين هي جنوب الشلال الثالث مباشرة، إلا أن الأوضاع في هذه المنطقة تشير إلى تحالف المحس مع الفونج، أمر ربما وقع بعد جلاء المعركة، وتثبيت الحدود في حنّك، التي تراجعت بعدها الجيوش العثمانية واستقرت في الحامية الرئيسية بجزيرة صاي. إلا أن هذا لم يمنع من وجود بعض القلاع الصغيرة، والوحدات السكنية، التي تعود لهذه الفترة.

أجرى قسم الآثار في جامعة الخرطوم مسحاً آثارياً في هذه المنطقة، ضمن برنامج المسح والتنقيب الآثاري لهذه المنطقة في موسمه الأخير (فبراير - مارس ٢٠٠٢)، للكشف عن بعض هذه المواقع.

وقد وجد العديد من القلاع، التي يلاحظ فيها الاستفادة من البروز الصخري العالي، وإقامة القلاع عليه اعتماداً على شكل البروز الصخري، فقلعة موقع "دوني" شبه دائرية، وبها برج واحد في الاتجاه الشرقي، وقد بنيت من الحجر كأساس، وبقية الحوائط من الجالوص (الطين النيئ) ، وتلاحظ فتحات البنادق في جميع الجهات (اللوحة ١). وكذلك في جزيرة "سِمت"، قامت قلعة على الصخور البارزة المقابلة للنيل، وهي شبه مستطيلة ولها ثلاثة أبراج، وأساسها أيضاً، من الحجر، وبقية الجدران من الجالوص (اللوحة ٢). وفي جزيرة "مُسُل" نموذج ثالث للإفادة من المرتفع الصخري الطبيعي، أقيمت قلعة لها أربعة أبراج، وبداخلها عدد من الغرف، وأساسها من الحجر، وبقية الجدران من الطوب الأخضر والطوب المحروق (اللوحة ٣)، كما يلاحظ وجود فتحات للبنادق.



الشكل ٢: مسقط أفقي – قلعة صاي (نقلاً عن: Alexander 2000)

وفي منطقة "نوري"، وجد مجمع سكني ضخم شمال جبل نوري، حائطه الجنوبي جزء من تحصينات العصور الوسيطة، ويتكون من أربع وحدات سكنية، أكبرها الشرقية (الشكل ٣)، التي نجد أن مدخلها من الناحية الشرقية، يؤدي لغرفة بها مصاطب للجلوس، وفيها مدخل إلى فناء داخلي تفتح فيه بعض الغرف. كما يوجد درج يقود للطابق الأعلى في الجزء الجنوبي الغربي (لوحة ٤). وداخل هذه الغرف نجد الرفوف الحائطية والتجاويف ثلاثية الفصوص. كما تلاحَظ بقايا الأبواب الخشبية المعروفة من قصر إبريم وسواكن حتى وسط السودان.

٣-١-٤ الأسلحة:

كانت الإمبراطورية العثمانية رائدة في مجال استخدام السلاح الناري، وكانت لديها وحدات من المشاة، الذين يستخدمون القرنيبه (سلاح ناري من طراز قديم) والمدافع.

ومع بداية القرن السابع عشر، أصبح استخدام البنادق والبارود شائعاً، إذ عثر على بقايا البنادق والطلقات في حفريات إبريم وصاي. كما عُثر في إبريم على مدفع بعيد المدى، تحت إحدى البنايات. كما توجد أيضاً إشارة لمدفع نحاسي في قلعة صاي، منقوش عليه اسم (سليم)، وقد جرى صهره خلال التركية الثانية (Bellefonds 1824)، كما أشار شلبي إلى استخدام البنادق في مملكة المحس (Çelebi 1938).

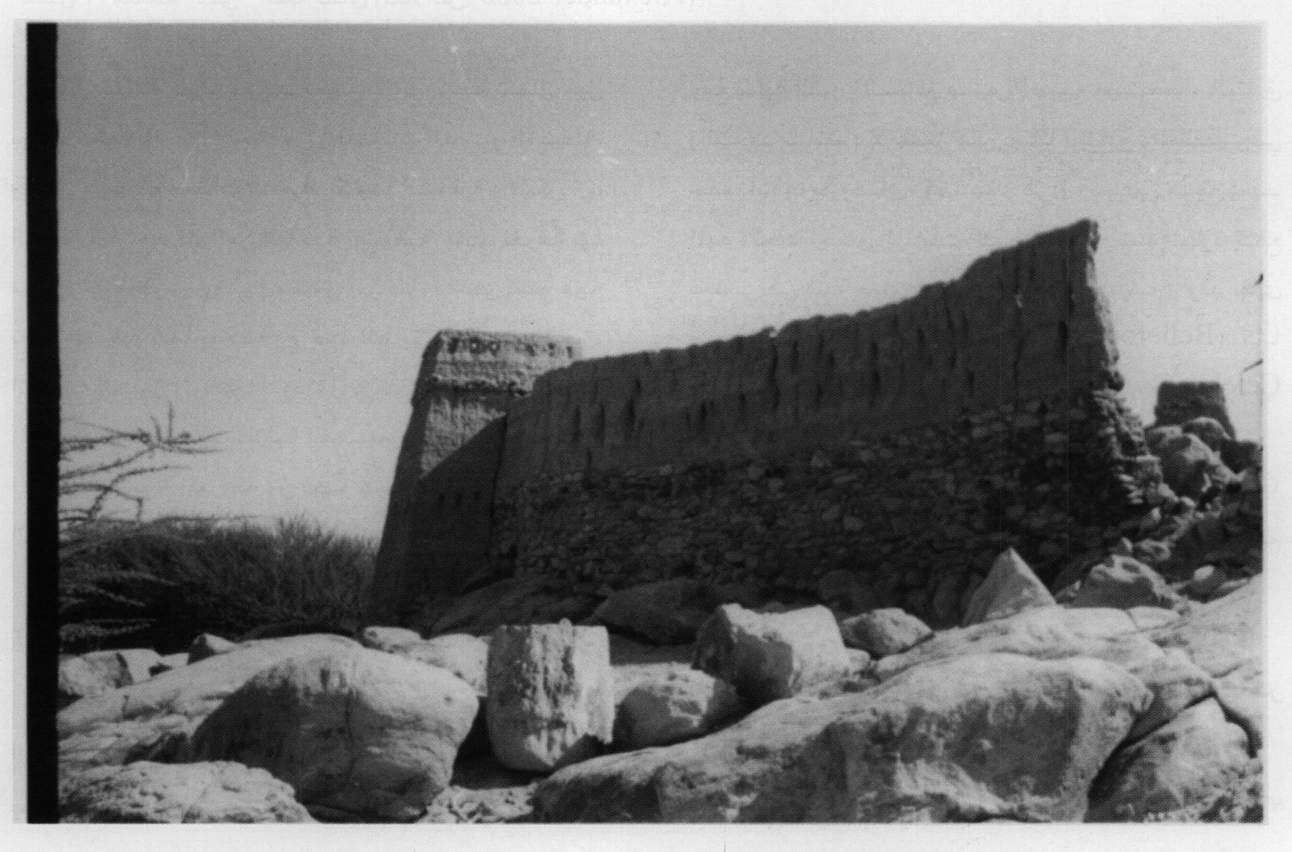
أما الأسلحة البيضاء، فقد عثر في قصر إبريم على بقايا السيوف المعقوفة، التي استخدمها سلاح الفرسان؛ ولكن لم يُعثر على بقايا دروع (Adams 1992).

٣-٢ التركية الأولى في شاطئ البحر الأحمر (سواكن):

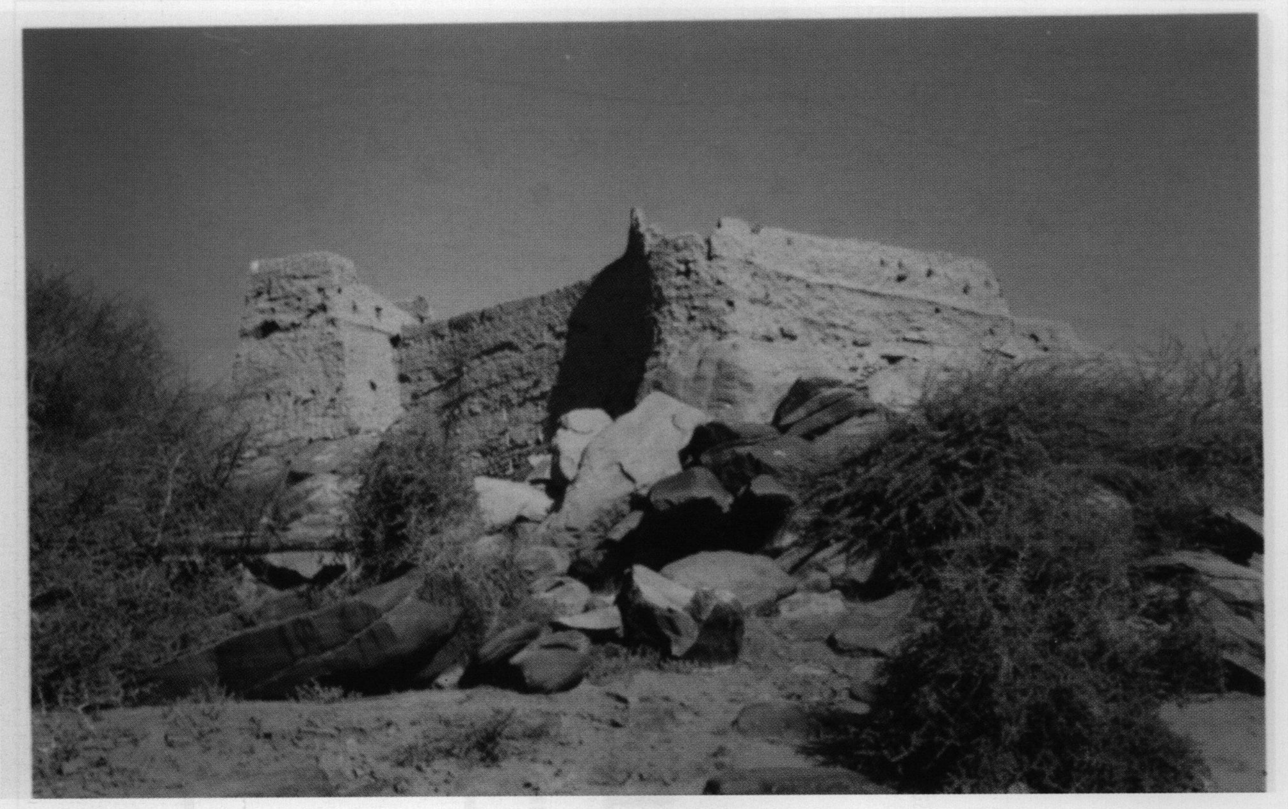
تعدُّ سواكن مثالاً لمدينة تركية بنيت بين القنون، التي



اللوحة ١: قلعة دوني (نقلاً عن: Soghayroun 2002)



اللوحة ٢: قلعة جزيرة سمت (نقلاً عن: Soghayroun 2002)



اللوحة ٣: قلعة جزيرة مُسل (نقلاً عن: Soghayroun 2002)



اللوحة ٤: البرج – الوحده السكنية _ نورى (نقلاً عن: So-ghayroun 2002).

أصبحت المصدر الرئيسي لدراسة فنون سواكن وعمارتها (Greenlaw 1976).

وكما هو معلوم، فان المناخ الساحلي يتطلب نوعاً من البناء، يختلف عن متطلبات الصحراء، وهو البناء الذي يجذب هواء البحر، ويجعله يدور بحرية داخل المنزل، مع إخراج الهواء الساخن وإبعاد ضوء الشمس. وقد تطور طراز البناء في ساحل البحر الأحمر ليقابل هذه الاحتياجات. فنجد المنازل تتكون من طابقين أو ثلاثة، تقطعها المشربيات، كما نجد النوافذ المفرعة والأسطح المجهزة للنوم.

لم تُخطط سواكن، فقد نمت مثل معظم المدن القديمة، مدينة ذات شوارع ضيقة، ومنافذ صغيرة بين بلكونات المنازل. وتحيط بها تحصينات كتشنر، التي أقامها عام ١٨٩٠، ذات المدخل الحصين.

٣-٢-١ المنازل :

بُنيت المنازل الأولى، عدا منزل خورشيد، في الجزء الجنوبي من الجزيرة وقليل منها بُني في الجزء الشمالي، ومعها بعض المساجد، مثل الحنفي والشافعي، وهو الجزء نفسه، الذي

نهر النيل
N
الدور العلوى – الوحدة (١)
1 2 3 4
شكل رقم (٣)

الشكل ٣: مسقط أفقي – الوحدة السكنية – نوري (نقلاً عن: Soghayroun 2002)

شهد مباني نهاية القرن التاسع عشر، التي تضم المحافظة، والجمارك، والتلغراف، والبنك الأهلي المصري، ورئاسة كتشنر، وغيرها.

قسّم "قرينلو" المنازل إلى نوعين: النوع التقليدي، وهو من طابق واحد، ويتكون من غرفتين أو ثلاث غرف، الصغرى للعائلة والثانية للضيوف وهو يشبه نظام الخيمة عند البدو. ويوجد بداخل هذا النوع من المنازل، مميزات المنازل الكبيرة نفسها، مثل: الرفوف داخل تجويف الجدران، والمنظمة في ثلاثة أدوار باستخدام فواصل خشبية؛ كذلك زخارف أعلى المداخل والنوافذ الخشبية المفرّغة (الشكل ٤).

أما النوع الثاني، فهو الذي يتكون من طابقين فأكثر، ويحتوي على غرفة استقبال كبيرة، تجاورها غرفة صغيرة وحمام. وعندما تكون الغرفة في المدخل، فإنها تسمى "الدهليز" ويوجد في نهايته الديوان. ويتكون الديوان من جزئين، يرتفع الجزء الثاني منهما عن الأول بدرجين أو ثلاثة، ويحتوى على مصاطب للجلوس بارتفاع ٥ سم من الأرض إضافة للمشربية. أما الطابق الأول، وما بعده من طوابق، فهي أكبر حجماً وتحتوى على (الحرملك)، وهو للعائلة، ويتكون، عادة، من عدد من الأجنحة أو غرف للجلوس، تسمى المجلس. ويحتوي كل جناح على غرف صغيرة تسمى "الخزانة"، ومطبخ مستقل وحمام. وتتصل الطوابق العليا للمنازل –عادة– مع بعضها لتسهُل عملية خروج النساء دون اللجوء للشارع. وكما هو الحال في منازل إبريم وصاي، يوجد مدخلان للمنزل: مدخل للنساء والآخر للرجال.

من الملامح المهمة في منازل سواكن، "الروشان"، كما يعرف في سواكن وجدة، وهو "المشربية"، كما هو معروف في مصر،



و"الشناشيل" في العراق. ويطل الروشان يطل على الشارع، ويصنع من خشب التيك المستورد من جاوة، ويسمى "جاوى"، ويشحن من شرق الأنديز. ويمكن تتبع الروشان حتى الهند شرقاً، وليما في بيرو غرباً. وهو ظاهرة معروفة في جنوبي أسبانيا ومالطة ومصوع والصومال. إن حجم الروشان له علاقة بطول الإنسان، فهو عريض لينام فيه الشخص ومرتفع ليقف عليه ويطلع على الشارع بنحو ٦٠ سم؛ فإذا أضفنا هذا لسمك الحائط، يصبح الروشان أعمق وأعرض ما يسمح بجلوس اثنين أو ثلاثة لشرب القهوة. وتسمى أرضيته "الجلسة" ويضاء بمصباح كهربائي ينزل من السقف. وتتنوع الرواشين في زخرفتها وحجمها، وقوام الزخرفة أشكالا هندسية.

٣-٢-٢ المساجد :

توجد العديد من المساجد التركية في سواكن، التي من أقدمها المسجد المجيدي، ويتكون من رواق القبلة بمحرابه ومنبره ودكّة المبلّغ. وللمسجد ثلاثة مداخل، وملحقة به خلوة ومئذنة في الجانب الجنوبي الغربي. وهي مئذنة مبنية من الحجر، مثمّنة بها مقرنص، وبنيت شرفتها من الحجر خلافاً لبقية المآذن في سواكن، التي شرفاتها خشبية. يلى الشرفة جزء أسطواني تعلوه قبة صغيرة. كما يوجد أيضاً المسجد الحنفي، وهو في عمارته أفضل من المجيدي، ولكن في الحجم نفسه. ويتميز المسجد الحنفي بكثرة الزخارف على المحراب والمنبر، وله مئذنة. كذلك يوجد المسجد الشافعي، وهو أكبر من الحنفي والمجيدي وأكثر زخرفة، وله أربعة أروقة، وملحق به خلوة في الناحية الشمالية الغربية، ومئذنة في الجانب الجنوبي الغربي، وله ثلاثة مداخل. وهناك أيضاً عدد آخر من المساجد في سواكن.

أما الزوايا فهي على نوعين، النوع البسيط المكشوف في شكل مربع أو مستدير، له حائط قصير واتجاه القبلة ومدخل واحد من جهة الغرب. يتفرع من هذا النوع البسيط، نوع يتكون من أكثر من مساحة: جزء مفتوح، وجزء مظلل ومفتوح الجوانب، وجزء مسقوف. أما النوع الثاني، فهو ذو السقف المقبب، مثل زاوية موسى وزاوية المجذوبي.

وفيما يتعلق بالعمارة العسكرية، فهي في شكل تحصينات وبوابات رئيسية يعود معظمها للعهد الثنائي المصري البريطاني.

٤- آثار التركية الثانية:

من أهم آثار فترة التركية الثانية (١٨٢١-١٨٨١) م، قباب الأتراك في الخرطوم. تقع هذه المقابر في شرقي شارع القصر وشمالي شارع البلدية، وتتكون من قبتين: قبة أحمد باشا جركس المعروف بـ (أبو ودان)، الذي توفي عام ١٨٤٤م، وهي القبة الشرقية؛ أما القبة الغربية، فيرقد فيها موسى باشا حمدي، المتوفى عام ١٨٦٥م، وتضم أيضاً رفاة أحد أفراد عائلته.

أما في صحن المقبرة، فيوجد مدفن محمد ممتاز باشا، الذي حكم بين (١٨٧١- ١٨٧٣) م، وكذلك يضم هذا الفناء آدم باشا العريفي، وهو سوداني من ضباط الجيش المصري، والماظ باشا (سوداني) ، وإبراهيم بك مرزوق، وهو كاتب مصري، وآخرين.

وإضافة إلى مقابر المسؤولين الأتراك، كانت هذه المقابر عامة وتعرف بمقابر الخرطوم، وتمتد غرباً حتى الجامع الكبير، الذي يعرف باسم (جامع عباس). وقد كان هذا الموقع على بعدٍ كافٍ من المباني الحكومية والسكنية في ذلك الوقت، كما أن اختيار الموقع كان بغرض أن يستطيع الناس رؤية هذه القباب، فيدركون أن الحكم التركي باقٍ.

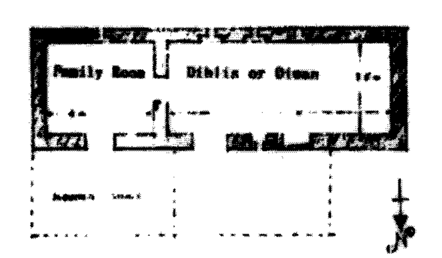
ومن المعلوم أن نظام الدفن تحت القباب كان معروفاً في السودان، ولكن يدفن الشيوخ فقط تحتها، وليس الحكام.

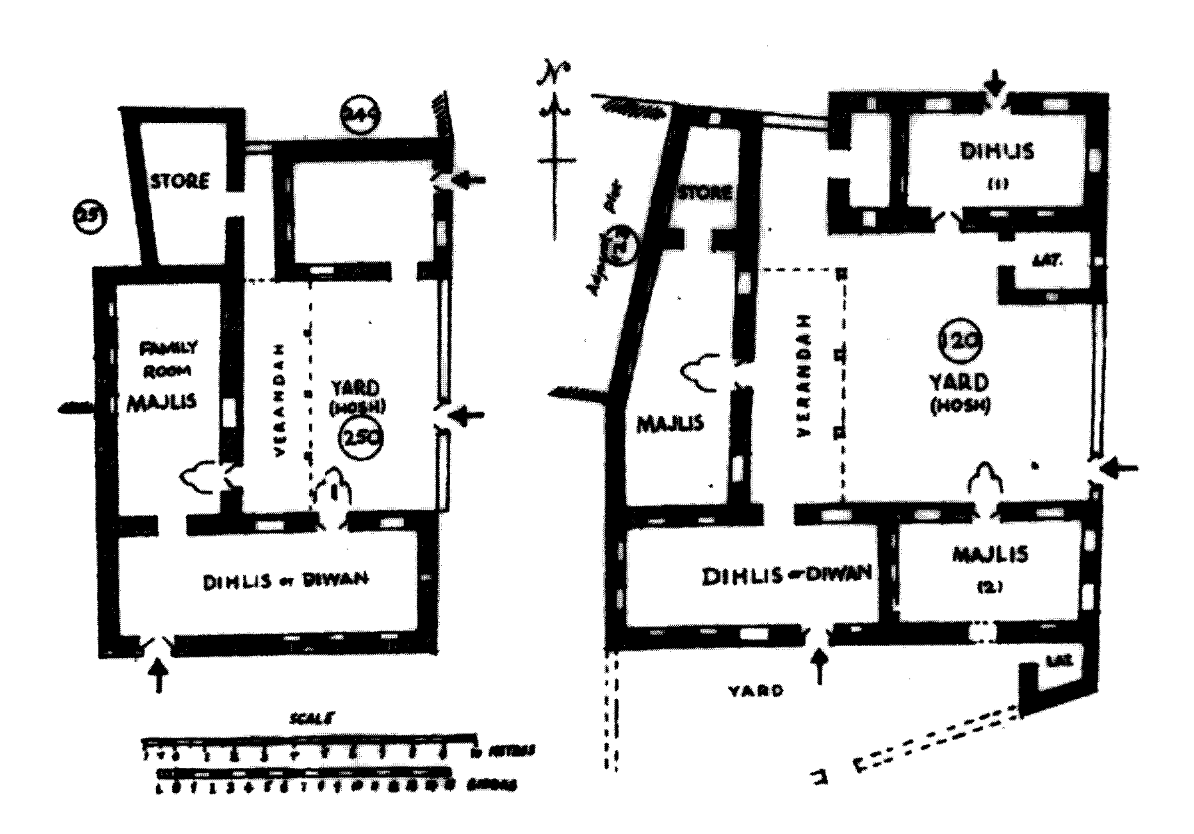
ولم تكن هذه القباب هي كل ما شُيِّد في تلك الفترة، ولكن معظم العمائر طالتها يد التغيير، مثل قصر الحكمدارية (وزارة المالية الآن)، وسراي الحاكم (القصر الجمهوري)، وغيرها من دواوين الحكومة.

٥- خاتمة :

وهكذا بدأت في السودان دراسات جديدة حول الوجود العثماني، أو التركية الأولى (١٥١٧-١٨٢٠) م، ولكنها دراسات لا







الشكل ٤ : مسقط أفقي للمنازل في سواكن - النوع الأول. (نقلاً عن: Greenlaw 1976).

تزال تخطو خطواتها الأولى. فعلى وادي النيل، اكتمل العمل الأثرى في موقع قصر إبريم، كما شارف على الانتهاء في موقع جزيرة صاي، التي ستصدر عنها كتب خلال الفترة القليلة القادمة، وهي، بصورة عامة، تتحدث عن القلاع الرئيسية، ويبقى البحث والتنقيب داخل المراجع والأرشيف العثماني وداخل المواقع الكثيرة المنتشرة شمالي السودان، وذلك من أجل فهم الوضع الاجتماعي والسياسي، الذي نجم عن وجود الجنود من مختلف أنحاء الإمبراطورية، في منطقة النوبة، خاصة بعد السماح لهم بالزواج والاستقرار. وقد تلاحظ أن تلك الفترة تزامنت مع هجرة شيوخ الطرق الصوفية جنوباً وهي الهجرة التي ربما كانت بسبب الوجود العثماني السني في هذه المنطقة. كما وجدت العديد من المنازل المحصنة، التي عُثر على كتابات بالتركية على عتبات مداخلها، وهي قد تفيد في دراسة الأوضاع الاجتماعية.

كذلك يجب الاهتمام بدراسة منطقة الشلال الثالث، التي تمثل معضلة فى حد ذاتها بحسبانها منطقة حدودية. وتشير المخطوطات إلى وجود الحكام المحليين جنباً لجنب مع الاداريين



العثمانيين، كما تشير إلى تحالف ملوك المحس مع ملوك الفونج.

أضف إلى ذلك المشكلة المتــوارثة، مند تطور علم الاثار الاسـلامية فى نهاية القرن التاسع عشـر، ألا وهى دراسة أثر الصفوة من قصور و مساجد ضخمة، و قطع فنية رائعة، نفتقدها في الدول الإسلامية جنوبي الصحراء.

وبصـورة عـامـة، فـإن هـذه المنطقـة تعـد على أطراف أو هامش الامبـراطورية العـثمـانيـة. وقـد كانت، ولأزمـان طويلة، منطقة حدودية تتقدم وتتراجع خلال التاريخ القديم للسودان؛ أما الجزء منها، الذي سادت فيه مملكة الفونج الإسلامية، فلم يكن فى يوم من الأيام جـزءاً من الخلافـة الأسـلامـيـة. وهكذا فإن دراسة هذه المنطقة، كجزء من الامبراطورية العثمانية، يجب أن تلتمس بحذر كمنطقة هامشية، كما يجب مقارنتها بالدول الأخـرى، التي كـانت يومـاً من الأيام على هامش تلك الأمبراطورية العظيمة.

إن هذه الدراسات لا تزال في بدايتها، وقد بدأ قسم الآثار بجامعة الخرطوم في تشجيع طلاب الدراسات العليا وتوجيههم نحـو هذا النوع من الدراسـات، باعـتبـارها جـديدة، وجـديرة بالبحث والدراسة، وفيها الكثير، الذي يمكن اكتشافه وإضافته لفهم جزئية من المجتمع السوداني، في فترة ما بعد العصور الوسيطة.

د. انتصار صغيرون الزين: قسم الآثـار - كليـة الآداب - جامعـة الخرطـوم - السودان.



المراجع

أولاً: المراجع العربية:

مكي شبيكة ١٩٩١ . **السودان عبر القرون**، دار الجيل، بيروت، لبنان.

نعوم شقير ١٩٠٣ . **جغرافية وتاريخ السودان**، دار الثقافة، بيروت.

ثانياً: المراجع غير العربية:

Adams, N. K 1992. "Life in Ottoman Times at Qasr Ibrim", **Etudes Nubiennes,** Vol. I. Geneve.

Adams, W. Y 1987. "Islamic Archaeology in Nubia: An Introductory Survey", **Tomas Hagg**, PP: 327-361. Uppsala.

-------------- 1996. **Qasr Ibrim: the Late Medieval Period. Egyptian Exploration Society**. London.

Alexander, J. A 1996. "The Turks on the Middle Nile". **Archéologie du Nil Moyen**. Vol. 7. Lille.

-------------- 1997. "Qalat Sai: The Most Southerly Ottoman Fortress in Africa. Sudan and Nubia", **SARS**. No. 1. PP: 16-19. London.

-------------- 2000. "The Archaeology and History of The Ottoman Frontier in the Middle Nile Valley 911-1233 AH/1504-1820 AD", **Adumatu**. Vol.1. PP: 47-61. Riyadh.

-------------- & Schlee, N forthcoming The Ottoman Fortress of Sai. Lille

-------------- forthcoming The Ottoman Fortress of Qasr Ibrim, Lille

Çelebi, E 1938. **Seyahatnameh, Misr, Sudan Habes 1672-1680,** Book X, Istanbul.

Greenlaw, J. P. 1976. **The Coral Building of Suakin**, Leeds.

Hinds, M 1991. **Qasr Ibrim in the Ottoman Period: Turkish and further Arabic Documents. Memoir,** Egyptian Exploration Society, London.

Luigi, M 1960. "Khartoum in 1842: One of the Three Impressions of Khartoum during the Turkiiya", **Sudan Notes and Records,** Vol xl. PP: 101-106, Khartoum.

Marill, W 1964. "The Wooden Locks of Wadi Halfa Region", **Sudan Notes and Records,** Vol. xxxxv, PP: 24-34, Khartoum.

Mathew, D. H 1953. "The Red Sea Style". **Kush**. Vol. I. PP. 65-86, Khartoum.

Menage, V.L 1988. "The Ottomans and Nubia in the Sixteen Century", **Annales Islamologiques,** Vol, xxiv, Cairo.

Plumley, J. M 1971. "Qasr Ibrim and Islam", **Etudes et Travaux,** xii. PP: 158-70. Cairo.

Sakkout, H & Hinds, M 1986. **Arabic Documents from the Ottoman Period from Qasr Ibrim,** London.

Soghayroun, I. E 2000. Islamic Archaeology in The Sudan. Unpublished Ph.D., Thesis, University of Khartoum.

Udal, J. O. N. 1998. **The Nile in Darkness: Conquest and Exploration 1504-1862,** Norwich.

Vercoutter, J 1958. "Excavation at Sai", **Kush,** Vol, 6. PP: 144-169, Khartoum.

Walkey, C. E.J 1933. "The Story of Khartoum", **Sudan Notes and Records,** Vol. xviii.Part ii, PP: 221-242, Khartoum.